Adab Al-Rafidayn

https://ojs.uomosul.edu.iq/index.php/radab

Capitalism and Its Manifestations in the Novels (Love in the Age of Globalization and Alexandria 2050) by Subhi Fahmawi: A Study in the Light of Environmental Criticism

Nauman Thabet Mohammed Amin
University of Anbar\ Ramadi-Iraq

Harith Yaseen Shakir Mahmoud
Department of Arabic Language\ College of Arts\
University of Anbar\ Ramadi-Iraq

Article Information

Article History:
Received Oct 28 ،2025
Revised Nov 23،2025
Accepted Nov ،302025
Available Online Feb. 1, 2026

Keywords:
Environmental criticism،
Capitalism،
Fahmawi،
Environmental awareness،
Consumer culture.

Correspondence:
Harith Yaseen Shakir Mahmoud
hhareth92@uoanbar.edu.iq

Abstract

Objectives: The purpose of this research is to study a new critical approach that focuses on the relationship between literary texts and environmental manifestations. It aims to reveal the close connection between human relationships and the environmental context، highlighting the author's ecological vision and its representation in the two novels، as well as how it shapes environmental awareness and the ethical commitment of the text.

Methods: The study adopts an environmental criticism perspective، which is an interdisciplinary approach that intersects with various social، cultural، and ideological contexts. Through these contexts، we examine environmental manifestations within the capitalist system، utilizing methods such as analysis and interpretation، along with narrative tools that help uncover the environmental implications in Fahmawi's novels.

Results: Environmental criticism emphasizes the reality and materiality of nature and the interaction between the elements of the literary text and the environment. This clarifies the author's (Subhi Fahmawi) vision and his growing commitment to the idea that the non-human world should be treated ethically، stemming from a complete awareness of the environment and its contents. Furthermore، it links the current environmental crisis to the developments of the capitalist system، as this relationship has severed the connection between humans and nature، while also raising the reader's awareness of environmental issues and the importance of maintaining a pollution-free environment.

Conclusions: The capitalist system has a prominent presence in Subhi Fahmawi's novels، as the critical approach of environmental criticism focuses on the exploitation of resources within the environmental system. This is most evident in the novels Love in the Age of Globalization and Alexandria 2050، which contribute to expressing the author's awareness of and advocacy for the environment. Additionally، the critical approach to environmental discourse has played a role in promoting environmental culture and rejecting consumer culture in non-industrial societies.

DOI: ©Authors: 2023: College of Arts: University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0 /).

الرأسمالية وتجلياتها في روايتي (الحب في زمن العولمة، والإسكندرية 2050) للكاتب صبحي فحماوي، دراسة في ضوء النقد البيئي

. نعمان ثابت محمد أمين * حارث ياسين شكر **

المستخلص :

الأهداف: الغرض من هذا البحث دراسة منهج نقدي جديد يهتم بالعلاقة بين النص الأدبي وتجليات البيئة، ثم الكشف عن الارتباط الوثيق بين العلاقات البشرية والمحيط البيئي، وإبراز رؤية الكاتب الإيكولوجية ومظاهر تمثيلها في الروايتين، وكيف تشكل الوعي البيئي والالتزام الأخلاقي للنص.

المنهجية: لقد جاء منهج الدراسة على وفق منظور النقد البيئي؛ إذ هو منهج بيني يتداخل مع سياقات اجتماعية وثقافية وايديولجية متعددة، لنقارب من خلال هذه السياقات تجليات البيئية عبر النظام الرأسمالي، مع الاستعانة بإجراءات مثل التحليل والتأويل، فضلًا عن أدوات السرد التي تعيننا على كشف المضمرات البيئية في روايات فحماوي

النتائج: يؤكد النقد البيئي على حقيقة الطبيعة وماديتها وعلى التفاعل ما بين حيثيات النص الأدبي والبيئة، وبذلك تتضح رؤية الكاتب (صبحي فحماوي) والتزامه المتنامي بالفكرة التي تقول بأنَّ العالم غير البشري يجب التعامل معه بشكل أخلاقي ينبع من وعيٍ تام بالبيئة ومحتوياتها، علاوةً عن ذلك ربط الأزمة البيئية الراهنة بتطورات النظام الرأسمالي؛ إذ قامت هذه العلاقة على قطع صلة الإنسان بالطبيعة، فضلًا عن تنمية وعي القارئ بالقضايا والمشكلات البيئية والمحافظة على بيئة سليمة خالية من التلوث.

الخلاصة: كان للنظام الرأسمالي في روايات (صبحي فحماوي) حضور لافت؛ إذ ركزت المقاربة النقدية للنقد البيئي على ما يحصل في المنظومة البيئية من استغلال لمواردها، وأكثر ما تجلى ذلك في روايتي (الحب في زمن العولمة) و (الإسكندرية 2050)؛ إذ أسهمت الروايتان في التعبير عن وعي الكاتب تجاه البيئة والانتصار لها. كما أسهمت المقاربة النقدية للخطاب البيئي في نشر الثقافة البيئية ونبذ ثقافة الاستهلاك في المجتمعات غير الصناعية.

الكلمات المفتاحية: النقد البيئي، الرأسمالية، فحماوي، الوعي البيئي، ثقافة الاستهلاك

المقدمة:

مفهوم النقد البيئي

النقد البيئي مجال معرفي جديد في الدراسات الإنسانية والعلوم البيئية، مخصّص لدراسة العلاقة التي تربط الأدب والبيئة في النصوص والخطابات الإبداعية والثقافية. بمعنى آخر يُعنى بدراسة العلاقة التي تربط الإنسان ببيئته الطبيعية، وما يترتب على هذه العلاقة من توتر وقلق نتيجة النمو الصناعي والتطور التكنولوجي، فهو يحاول دراسة النصوص الإبداعية من منظور بيئي يبحث عن مكانة البيئة الطبيعية أو الأرض، أملًا في رصد رؤى المبدعين، ووجهة نظر كل واحد منهم تجاه الأزمة البيئية التي يُعدُّ الإنسان المسبب الرئيس لها[1].

ولا شك في أنَّ علاقة الإنسان بالبيئة قد شهدت في الآونة الأخيرة تحولًا خطيرًا؛ إذ تعرضت الطبيعة إلى الاعتداء من قبل الإنسان المعاصر الذي ينظر إليها على أنها مادة أولية ينبغي له استغلالها، واستهلاكها من منطلق نفعي (براغماتي) مشوَّه، منزوع من أي بعد أخلاقي وتوعوي في ما يتعلق بالطبيعة[2]. وبالعودة إلى منظور النقاد الغربيين للنقد البيئي، يعرّف (سكوت سلوفيتش) النقد البيئي بأنه "دارسة النصوص البيئية الصريحة، بواسطة مقاربة بحثية، واستكشاف التعقيدات البيئية والعلاقات بين الإنسان والطبيعة في أي نصّ أدبي"[3]. فهو يهتم بالقابع أو المطمور من علاقة الإنسان بتفاصيل البيئة، وسارت على هذا المنوال (بيبا مارلاند) في مقالها: (مقدمة في

* م.د /رئاسة الجامعة /جامعة الانبار-الرمادي - العراق
** أ.م.د/قسم اللغة العربية /كلية الاداب /جامعة الانبار-الرمادي - العراق
1() مارلاند وآخرون, 2021: 9.
2() الحسامي, 2009: 245.
3() مارلاند وآخرون, 2021: 229

النقد البيئي) أنه "مصطلح شامل لسلسة من المقاربات النقدية التي تتحرى من خلال الأدب (وبقيّة الأشكال الثقافية الأخرى)، تمثيل العلاقة بين البشر وغير البشر، من منظور القلق حول التأثير المدمر للبشرية على المحيط الإحيائي"[1].

وما زال الباحثون يرددون تعريف (تشريل غلوتفلتي) الرائد في كتابها: (دليل القارئ للنقد البيئي)، تقول فيه إنَّ النقد البيئي هو "دراسة العلاقة بين الأدب والبيئية المادية. تمامًا كما أنَّ النسوية تستكشف اللغة والأدب من منظور وعي الجنوسة، وأنَّ النقد الماركسي يتناول الوعي بأشكال وسائل الإنتاج والطبقة الاقتصادية في قراءته للنصوص كذلك فإنَّ النقد البيئي يتخذ من الأرض مركزًا لمقاربته في الدراسات الأدبية"[2]. تحاول (غلوتفلتي) في تعريفها أن تضع آلية لمقاربة الإحساس بالبيئة بحيث يتفاعل المبدع، ويتحاور مع البيئة ويستنطق مكوناتها وخباياها، وكيفية تمثيل الطبيعة في هذا النص الإبداعي، وما هي إمكانية التداخل بين الدراسات الأدبية والخطاب البيئي في مجالات المعرفة الأخرى كالفلسفة وعلم النفس والتاريخ والثقافة وغيرها[3].

وأما (لورنس بويل) فيعرفه في كتابه (الخيال البيئي) بأنه "دراسة العلاقة بين الأدب والطبيعة التي تسودها روح الممارسة البيئية"[4]، بينما يعرفه (مايكل برانش) على أنَّه ذلك الفرع من النقد الذي "يركز على نحوٍ خاص على العناصر الثقافية، اللغة والأدب وعلاقتهما بالبيئة، إنَّه موقف نقدي يضع إحدى قدميه في الأدب والأخرى على الأرض"[5]. يكشف هذا التعريف موضع الترابط بين البيئة الطبيعية والثقافة، ولا سيما النتاجات الثقافية في اللغة والأدب، كما يحمل هذا التعريف إضافة مهمة تتمثل في أنَّ النقد البيئي ينفتح على عدة مناهج - في تصوري هو نقد نسقي وسياقي في الوقت ذاته، فهو منهج بيني- حيث تنعقد فيه "ترابطات نصية منفتحة على سياقات مختلفة، فهو منتمٍ – بشكل أو بآخر – للسياق النفسي، والفلسفي، والثقافي، والتاريخي، والاجتماعي،... وهذا الانفتاح أهم ما يميز النقد البيئي"[6]، بوصفه نتيجة طبيعية لفلسفات ما بعد الحداثة التي تؤكد على إعتاق العقل من الخضوع لهيمنة النقد الشمولي الصادر عن المركزية التي حاولت فلسفة الحداثة تثبيتها؛ إذ أصبح هناك إعراض عن المركزية الصارمة التي استدعت محاولات عدة للتمرد وإعلان تعدد المركز (تعدد الأصوات).

نخلص من هذه المفاهيم إلى أنَّ النقد البيئي يعني بدراسة العلاقة بين النص الإبداعي والبيئة وكيفية تمثيل الطبيعة في هذه النصوص، لذلك تؤكد أغلب التعريفات على الاهتمام بدراسة القضايا البيئية أكثر من القضايا الاجتماعية، حيث يُنظر "إلى الفرد كعنصر في المنظومة الإيكولوجية"[7]، فضلًا عن اهتمام النقد البيئي بالقضايا الطبيعية ومعالجة الأزمة البيئية، يهدف كذلك الكشف عن دور الثقافة في إيجاد علاقة تربط الإنسان بغيره من الكائنات في الوسط الحيوي، وعليه فالنقد البيئي يهدف إلى تحول طرائق التفكير في علاقتنا مع البيئة، فهو يمثل مسؤولية أخلاقية، على الناقد حملها لتوعية القارئ بالدور الذي يقدمه تجاه البيئة وكائناتها، وهذا الأمر لن ينجح إلا إذا كان حصيلة فكر ووعي ثقافي صحيح، يتحكم في سلوك الإنسان تجاه البيئة.

آليات قراءة النص البيئي

تتجلى حيثيات النقد البيئي في التحرر العميق من كل الأنساق التراتبية التي تعطي امتيازًا لمفهوم الهيمنة؛ لأن "مذهب ما بعد الحداثة يُعري الضديات المنفصلة، فإنَّه يفسح مجالًا للعلاقات القائمة المتبادلة بين الثقافة والطبيعة. لم تعد الطبيعة في هذا النسق توصف (بالآخر) ... لأن فكرة النقد البيئي عززت عملية تعليم تعاضدية حوّلت الاهتمام من موضع النفوذ إلى فكرة العلائقية"[8].

إذن سيكون التحليل النقدي البيئي متعدد المعاني والأصوات، وينفتح على استراتيجيات جديدة في القراءة، يتحرى وينهمك في القضايا البيئية، وفهم البعد البيئي "لأنه مُضمّن في مبادئ التعدد والترابط والتغاير، والتفكيك"[9]؛ لذا برزت منهجية النقد البيئي شبيهة بالنقد الثقافي الذي يرغب في فهم العلاقات ومكاشفتها، وما تحويه من مبادئ قد يخفى على القارئ البسيط كشفه، لما تحمله من مفاهيم عميقة بأساليب علمية ومنهجية[10]. لكن النقد البيئي تجاوز منهجية النقد الثقافي بشمولية مضامينه التي تجاوزت الأنساق الدلالية واللفظية، والمرجعيات السياسية والاجتماعية، لتصل إلى الإحيائية والكونية.

يمكننا القول: إنَّ دور النقد البيئي يتمثل في تفكيك النص وتحليله إلى أجزائه ومقوماته، ودراسة ما فيه من علامات وشفرات، للتعرف على الكوامن الفكرية والقوى الإيديولوجية التي تبثها في قضايا التعايش الإحيائي. كما يمكن أن يحلل الجوانب الثقافية والأدبية المؤثرة في

1() مارلاند وآخرون, 2021: 9.
2() مارلاند وآخرون, 2021: 23-24.
3() جرارد, 2009: 16.
4() مارلاند وآخرون, 2021: 70.
5() برانش, 2007: 44.
6() محمد, 2022: 461.
7() برانش, 2007: 47.
8() مارلاند وآخرون, 2021: 141.
9() مارلاند وآخرون, 2021: 141.
10() مارلاند وآخرون, 2021: 118-120

رؤية المبدع، ويهتم بالتفتيش عن الوظيفة البيئية المطمورة خلف الصفة الجمالية، ورصد رؤى الأدباء تجاه البيئة، ودراسة القيم الأخلاقية التي يحملها الأدب تجاه المنظومة البيئية من أجل إيجاد وعيٍ بيئيٍ، وبذلك يتبين لنا أنَّ النقد البيئي يجب أن يناقش الضمير البيئي، ويسلط الضوء على القيم الايجابية نحو البيئة الطبيعية في نقده، ويدرس الذوق الجمالي في التعبير عن مظاهر الطبيعة ومفرداتها، ويركز في تحليلاته الرؤية البيئية لعناصر الطبيعة[1].

الرأسمالية وعلاقتها بالبيئة

يسعى النقد البيئي دائمًا إلى ربط الأزمة البيئية الراهنة بتطورات النظام الرأسمالي؛ إذ يُعيد هذه القضية إلى بدايات نشوء الرأسمالية على انقاض النظام الإقطاعي، وبما أنَّ الإقطاعية كانت المسيطرة على النظام الزراعي آنذاك، كان لا بدّ من تحوّل العلاقات التي تربط الإنسان في الأرض، وبناءً على ذلك تحتم على الرأسمالية الركون إلى علاقة جديدة مع الطبيعة، وهي علاقة قامت على قطع صلة الإنسان بالطبيعة؛ إذ "تمحورت الثورة الصناعية في بريطانيا حول إبعاد العمال من الأراضي بعد مصادرتها، وذلك بدءًا من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر"[2]، وهكذا سعى النظام الرأسمالي إلى قطع صلة الإنسان بالبيئة الطبيعية، بعد أن بدلت حياة البشر في كل مكان امتدت إليه، فالقيم الاخلاقية والاجتماعية للمجتمع الرعوي الذي عاش بداخله الإنسان القديم والوسيط لقرون تغيرت جذريًّا، وانتزع الإنسان من عالمه الأخضر الهادئ الرتيب وأُلقي به في ضجيج المدن الصناعية.

وقد أحدث انتشار هذا النمط من الحياة الصناعية والمدنية الحديثة شعورًا بالحنين إلى الحياة الريفية، حيث الهدوء والنقاء وسحر الطبيعة، وهذا ما أدى إلى ظهور حركات ونظريات سياسية كالرعوية والرومانسية والإيديولوجيات الفلاحية، تنتقد الحداثة والرأسمالية والتصنيع باسم نقاء الحياة والطبيعة[3].

ووعلى الرغم من ذلك لا بدَّ من القول: إنَّ الرأسمالية هي أكثر أنماط الإنتاج حركة ونجاحًا عبر التاريخ، كونها نقلت المجتمعات البشرية من عهود الإقطاع والزراعة البدائية والتقاليد الجامدة، إلى عصر الصناعة والحداثة والتكنولوجيا المتقدمة، وهذه حقيقة لا ينكرها حتى عدو الرأسمالية الأول (كارل ماركس)[4]، لكن في لحظة ما "ينقلب تطور الرأسمالية إلى رجعية خطرة، حين يبدو واضحًا نمط إنتاجها يتناقض ويتضارب مع قدرة كوكب الأرض على تحمل مضاعفاته، فالرأسمالية كما هو معروف، تتطلب نموًّا اقتصاديًّا سريعًا ودائمًا"[5]،

وهكذا ظهرت الإيديولوجيا البيئية كرد فعل على التصنيع واستنزاف الموارد البيئية، وتشكّلت جذورها في الإيديولوجيات ذات النزعة الرعوية والرومانسية المناهضة للرأسمالية كالنسوية والفاشستية والاشتراكية، لكن سرعان ما اتجهت النماذج الفاشية والاشتراكية في كل من ألمانيا في عهد (هتلر) والاتحاد السوفيتي إلى حالة من التصنيع المكثف وتدمير الريف الألماني والروسي لصالح المدن الصناعية، وبهذا صار الانتصار للبيئة والحنين إليها إيديولوجية ناقدة للمجتمع الصناعي الحديث والرأسمالية المتوحشة[6]؛ فالعدو الأساسي للبيئة هو الرأسمالية؛ وذلك لأنَّ المشكلات البيئية والتدهور البيئي هو نتاج فرعي للرأسمالية.

يؤكد النقد البيئي على حقيقة الطبيعة وماديتها وعلى التفاعل ما بين حيثيات النص الأدبي والبيئة، وبذلك تتضح رؤية الكاتب (صبحي فحماوي) والتزامه المتنامي بالفكرة التي تقول بأنَّ العالم غير البشري يجب التعامل معه بشكل أخلاقي ينبع من وعيٍ تام بالبيئة ومحتوياتها، علاوةً عن ذلك ربط الأزمة البيئية الراهنة بتطورات النظام الرأسمالي؛ إذ قامت هذه العلاقة على قطع صلة الإنسان بالطبيعة، والمتمثلة بالفصل بين الريف والمدينة، واستهلاك التربة، التلوث الصناعي، تدهور الصحة، وسوء التغذية، وفقر الريف وانعزاله، إزالة الأشجار والغابات، والتصحر وشحة المياه والفيضانات، بمعنى مزيدًا من تغريب البشر في عملية مدمرة لعلاقة البشرية مع البيئة[7].

وقد اشتغل الروائي كثيرًا على هذه القضية؛ فثمة صراع دائم بين الرأسمالية والبيئة، وأكثر ما تجسد ذلك في روايتي (الإسكندرية 2050) و (الحب في زمن العولمة).

خطة الدراسة: قُسمت الدراسة إلى جانبين، الأول تنظيريًّا متمثلًا بالمقدمة، تناولت فيها العلاقة بين الرأسمالية والنقد البيئي، أما الجانب الثاني فكان تطبيقيًّا، على مستوى التحليل النقدي البيئي، ورصد مظاهر البيئة واشتمل على: تجليات الرأسمالية في رواية الاسكندرية 2050، وتجليات الرأسمالية في رواية الحب في زمن العولمة، ثم تأتي الخاتمة مشتملة على أهم نتائج الدراسة، وتليها قائمة بالمصادر والمراجع.

1() بعلي, 2007: 27.
2() محيو, 2020: 140.
3() هيود, 2012: 332.
4() محيو, 2020: 90.
5() محيو, 2020: 90.
6() هيود, 2012: 337.
7() محيو, 2020: 140.

تجليات الرأسمالية في رواية الإسكندرية 2050

ولعلَّ ما يُشير إلى ذلك، ما ورد في النص الروائي على لسان الراوي وهو يصف مدينة الإسكندرية عام 2050: "ها هي شواطئ المعمورة، وقصر المنتزه، تظهر على شاشتك، مشبوكة مع مدينة الإسكندرية في معمار واحد، وقد كانت أيام صباك متباعدة، تفصل بينها أرضٌ زراعية، وعلى الجهة الأخرى بحيرة مريوط، ومنطقة الملاحات، التي كانت رياحها تذرُّ الملح في العيون، فتبدو على شاشتك، وكأن شيئًا لم يكن! قالوا إنهم جففوها، وها أنت تراها مزروعة بالمشاريع المعمارية... وعلى البعد ترى مساحات واسعة شاسعة من تشوهات سكنية، لبيوت صفيحية صدئة، متراصة مترامية، في نهايات البحيرة، يبدو أنها لبقايا الفلاحين والعمال المتآكلين المعجونين بنفيات مدينة العولمة، والذين لفظتهم وأقصتهم حرية رأس المال، وطردتهم الى صحاري موحشة بعيدة"[1].

صور النص بشكل صريح تأثير الرأسمالية على الطبيعة، وكما ذكرنا سابقًا، لا يوجد شكٌّ بأنَّ حضارة الرأسمالية تُعد مدمرة من الناحية البيئية، وهذا ما أشار إليه النص حيث الاستحواذ على الأراضي الزراعية، وتجفيف مياه البحيرة خدمة لصالح أصحاب رؤوس الأموال، لأن الحاجة إلى "تنمية اقتصادية متواصلة تتطلب استغلالًا متواصلًا للبيئة"[2].

إنَّ هذه المشاريع العمرانية الكبيرة المقامة دونما مراعاة القضايا البيئية هدفها الأول هو تحقيق مصالح اقتصادية لفئة معينة، وهذا عماد الفكر الرأسمالي، لا سيما المتحالف مع السلطة؛ إذ لا يهمه سوى جني أرباحٍ مضاعفةٍ، بغض النظر عن العواقب التي قد تطيح بآمال وأحلام من دونهم، الربح أولًا، ولا ضير في الأزبال والعشوائيات، وبالنتيجة يحدث تغير واختلال في التوازن البيئي والاجتماعي، فعلى المستوى البيئي ينتج الاحتباس الحراري والفيضانات والتلوث، وأما على المستوى الاجتماعي تتغير نواح عدة في الحياة كالفقر والبطالة وتفكك القيم الأخلاقية، وتتركز هذه المشاكل بطريقة غير متساوية بين الناس نتيجة الفقر والتهميش وتغوّل حضارة رأس المال، ولعلَّ أكثر من يتأثر هم الفلاحون وجامعو الغذاء والذين يعيشون على الصيد؛ فهؤلاء يفقدون مصادر رزقهم عندما تنشأ المشاريع العمرانية والعولمية،

ربما تُشير العشوائيات إلى بيوت الطبقات الفقيرة التي بدأت تزحف على أطراف مدينة (الإسكندرية) بحثًا عن مأوى، لتفضح هذه العشوائيات إيديولوجيا الطبقة المهيمنة التي غالبًا ما تبرر الوضع القائم بمبررات منمقة، ووعود زائفة قد تنطلي على فئة كبيرة من المجتمع، وهذا ما يفاقم الأزمة البيئية أكثر، كي يزداد الفقراء فقرًا والأغنياء غنى، باتساع حجم الفارق الطبقي بين الفئة المستغلة، وغيرها من المستغلين، ولا حلَّ إلا بإلغاء الرأسمالية أو على الأقل ترويضها، أما غير ذلك سيعيش الإنسان في حالة تبعية للآخر بفعل الاستلاب الرأسمالي الذي أخذ بُعدًا اقتصاديًا، فضلًا عن استغلال الموارد البيئية التي بدأت تتناقص تدريجيًّا.

وللتأكيد على ذلك يقول (المهندس مشهور): "كان شراء شركة (يون تشو الصينية) أرض المطار وما حولها، في شمالي محافظة البحيرة وإنشاؤه على مساحة مئة كيلومتر مربع، كانت تغمرها ملاحات بحيرة مريوط، يعتبر ضربة معلّم! اشترى الصينيون المنطقة بكاملها، وجففوها، فاختفت بقايا البحيرة الملحية الشاحبة الخضرة، وحل محلها مطار دولي فسيح، وحسب معلومات الإنترنيت كانت صفقة تجارية صينية رائعة"[3].

ويشكل هذا - من وجهة نظر ماركسية - أحد العواقب الوخيمة للنظام الرأسمالي الذي تكدس فيه الأموال لدى فئات دون أخرى، لقد قدمت الماركسية، فضلًا عن نقودها للاستلاب الديني نقدًا لاستلاب آخر، هذا الاستلاب هو استلاب "محمولات العمل المستلب بإزاء رأس المال، مثلًا، تكاد تتطابق مع محمولات الإنسان المستلب بإزاء المقدس"[4]، بمعنى آخر هو استلاب "ماهية الإنسان لكن في رداء استلاب العمل إزاء رأس المال"[5]، أي في كلا الحالتين يُجبر الإنسان على الخضوع لمن يمتلك رأس المال من الجهات الخارجية، وإلى هذا أشارت الرواية بـ(اشترى الصينيون المنطقة بكاملها وجففوها).

في النص أعلاه نقد واضح للرأسمالية التي شاعت في مدن العولمة، فنشأت على إثر ذلك استغلال صارخ بحق الإنسان والبيئة الطبيعية؛ إذ تعرّض المزارعون للظلم البيئي كالاستيلاء على الأراضي، وممارسات العمل الاستغلاليَّة، والتَّهميش العرقي، وقد ورد في كتاب (جدل التنوير) ما نصه: "بدل الخضوع للسيف خضعت الإنسانية إلى الآلة العملاقة التي راحت تصنع السيف من جديد"[6].

ينتقد (فحماوي) النظام الرأسمالي الاحتكاري الذي صيَّر الإنسان إلى مجرد آلة تتحكم بها قوى وأنظمة اقتصادية لا يهمها سوى مضاعفة الأرباح، فلا يسلم منها البشر ولا الطبيعة، وثمة ما يُشير إلى ذلك في الرواية يقول (برهان): "أسهم تجارية لا تعرف لها وطنًا، ففي لحظات تنتقل مليارات الأسهم من مستثمرين غربيين إلى صينيين أو هنود، أو (كاليفورسيكيين) لقد انتقل مركز الحضارة الآن من الغرب

1() فحماوي, 2009: 7.
2() روبنز, 2008: 586.
3() فحماوي, 2009: 34.
4() عبد الجبار, 2018: 154.
5() عبد الجبار, 2018: 149.
6() هوركهايمر, أدورنو:, 2006: 280.

إلى الشرق، فبعد أن كانوا يسمونا (الشرق الأوسط، والشرق الأقصى)، لأن حجر الرحى كان عندهم، والشرق هو الذي يدور في فلكهم، صار الصينيون الآن يسمون الأوربيين الغرب الأوسط والقارة التي بعدها الغرب الأقصى، (لاحظ أنَّ الفندق ينتشر على كل منطقة الرياضة ومنطقة الإبراهيمية، ويدوس بأقدامه الجبارة داخل شاطئ البحر)، تلفت نظره لما ترى (يبدو أنَّ أهالي الإسكندرية صاروا ضيوفًا غرباء على هذه الشركات العولمية المالكة لكل شيء في لمدينة وما حولها!)"[1].

يؤكد هذا النص على ضرورة إعادة الروح إلى مدينة (الإسكندرية) بعد أن أماتتها الهيمنة الرأسمالية حين جعلت من المال إلهًا معبودًا[2].

(مدينة الإسكندرية) – كما تصورها الرواية- مكان تسيطر عليه الشركات الرأسمالية المفرطة التي باتت تفرض هيمنتها على الإنسان، وتشكل مصدر قلق واضطراب لدى الكثيرين بعد أن غيرت من الطباع والأخلاق حتى صار أهل الإسكندرية ضيوفًا غرباء؛ لذلك ترسم الرواية (الإسكندرية) بصورة مظلمة تماشيًا مع الرؤية السائدة فيها: "تهبط العربة الجوية بنا عند مدخل الفندق، فنرى الجو غائمًا، والسماء رمادية مكفهرّة، والضباب يهاجم العمارات، ويرتطم بالأرض... تبلع حبة هرمون المناعة، ثن تقول: (فندق على مساحة هائلة! أين حواري وشوارع الإبراهيمية التي كانت يومها حديثة؟ لم يبق سوى بعض البيوت الآيلة للسقوط"[3].

لا ضير في التوسع العمراني والسكني طالما لا يتجاوز على البيئة الطبيعية ومحتوياتها، لكن أن تهيمن الرأسمالية على الإنسان وتسلبه فكره[4]، فهذا أمر في غاية الخطورة، عندما تصبح إيديولوجية "مرتبطة بالرأسمالية والتي تقول بأنَّ على الإنسان أن يهيمن على الطبيعة ويطوعها، ويجادل هؤلاء أنَّ هذا التفكير ينطلق مباشرةً من هيمنة الإنسان على الإنسان، وبالنتيجة طالما بقي الإنسان يسعى للهيمنة على الآخرين، فإنه سيظل يسعى للسيطرة على البيئة"[5]، إلى أن يدمر الكوكب وما عليه، وهذا يتوافق مع حركة (الأرض أولًا)؛ فالروائي في هذا الطرح يُدين الفكر الرأسمالي الذي طالت يديه كل شيء بما في ذلك البشر! "كانت بيوت وعمارات الشاطئ عام 1966 تتراوح ارتفاعاتها من طابق واحد إلى خمسة عشر، وأما هذه العمارات الزجاجية المئوية الطوابق، المغرورة في الارتفاع، والمجاورة لخرائب موحشة، فهي عولمية الحضارة"[6].

إنَّ خطط التحديث المفرطة من قبل الرأسمالية كبناء العمارات المئوية وتجفيف البحيرات وإنشاء المطارات، فضلًا عن إزالة الأراضي الزراعية التي كانت تمتص البطالة، وتساعد في القضاء على نسبة من الفقر، وقد غيّرت بصورة جذرية من بيئة مدينة (الإسكندرية)، وكما أشار (هوغان وتيفين) فإنَّ خطاب النزعة التطورية يُعد نقطة محورية يتعارض فيها النقد البيئي مع الاستغلال الرأسمالي بصورة مباشرة، وثمن مثل هذا التقدم والحداثة تدفعه البيئة والطبقة الفقيرة من البشر[7].

الروائي دائم النزعة إلى الأماكن الخضراء (الريف، القرية)، ولعلَّه "نتاج طبيعي لإحساس الروائي العميق بالانتماء إلى الأرض وإلى القرية الهادئة الواعدة التي ظلت تحافظ على نقائها، وعلى بساطتها فلم تطلها المدينة بحضارتها فتفسدها"[8]، على أنَّ الحضارة المقصودة في هذه النصوص، هي تلك التي جُلبت إلى (الإسكندرية) بدعوى ظاهرها التطور والحداثة، وباطنها الاستغلال المكثف والمحموم بمختلف أشكاله وصنوفه بيئيًّا وبشريًّا واقتصاديًّا؛ لذلك بدأت الذات تُعرِّي وتُظهر زيف الرأسمالية المتسلطة على الموارد البيئية والبشرية، وبدأت تعود إلى واقع ما قبل التغيير؛ فثمة شخصيات "تحنُّ إلى الماضي؛ إذ تنظر إلى الخلف، إلى ماضي مثالي، ثم تنقله إلى المستقبل"[9].

يقول (المهندس مشهور): "كانت هنا بيوت الحضرة طينية، ريفية الطابع، يقطنها فلاحون يلتصقون بالمدينة... أتذكر فلاحًا كان يحرث في هذه الأرض، المزروعة اليوم بالعمارات الشاهقة، في ربيع عام تسعة وستين وتسعمائة وألف،... وعندما ألقيت السلام على الحراث، دعاني بحرارة لشرب الشي معه. كان شاي الإبريق يغلي فوق نار موقدة من حطب المزرعة، تحت نخلة باسقة، فصب لي الشاي (الحبر) بكثافة دبس قصب السكر، في كأسه الزجاجية المغبشة! كانوا هنا يزرعون الحبوب والبقول، والقطن الطويل التيلة، وأشجار الحمضيات والجوافة والمانجا، ويربون الجاموس والنحل، فيبيعون أهل المدينة حليبها وعسلها وأجبانها وزبدتها"[10].

في النصّ نقدٌ واضحٌ للجهات المسيطرة على رأس المال التي شاعت في مدينة (الإسكندرية) بعد عام 2050م سواءٌ المحلية منها أو العالمية، بعدِّها أنظمة غلَّفت أهدافها بأغلفة تقدمية وتطورية واقتصادية، لا تُراعي إلا مصالحها، ولا تلتفت إلا لما يضاعف أرباحها، لذا

1() فحماوي, 2009: 43.
2() ماركوز, 2011: 254.
3() فحماوي, 2009: 43.
4() أحمد, 2006: 130.
5() روبنز, 2008: 587.
6()فحماوي, 2009: 44.
7() مارلاند وآخرون، 2021: 168.
8() يتقه, 2009: 326.
9() سارجنت, 2016: 28.
10() فحماوي, 2009: 42.

فإنَّ السرديات المتمركزة أنثروبولوجيًّا حول انتصار عقل الإنسان على البيئة الطبيعية تؤكد بشكل واضح بأننا نعيش في مجتمع رأسمالي، خصوصًا أنَّ الميزة الحالية للتفاعل البشري مع الطبيعة يجري تنظيمها من أجل الربح وليس من أجل حاجة الإنسان[1].

في مقابل هذه اللوحة المثيرة للقلق هناك لوحة أخرى مثيرة للخوف، يستمر الكاتب في خلق أجواء مظلمة محملة بهموم بيئية، جاءت من خلال حوار الراوي مع ولده (برهان) فيجيب والده قائلًا: "تقصد أنَّ ما قبضوه ثمنًا للنفط، سينفقونه على مقاومة نتائج حرقه؟ حضارة الغرب المغرورة ترفهت بحرق النفط داخل سياراتها ومصانعها. تقول لك الإعلانات المُضللة: (عبئ سيارتك العملاقة بالنفط الرخيص، وانطلق إلى محبوبتك!)، وبعد عصر النفط، استهلكوا الغابات، وزرعوا مكانها عمارات جميلة المظهر؛ فأفرزت من تحتها برازًا ومجاري لوثت البيئة، وبثت غازات وسمومًا فضائية، أهلكت الحياة على الأرض!"[2].

في هذا المقطع السردي نقد مبيت لحضارة الغرب المبنية على الاستغلال والجشع بدوافع مادية ونفعية، ولعلَّ هذا ما اشتغلت عليه الرأسمالية من حيث التركيز الكامل على النمو الاقتصادي والفلسفات المادية البحتة، لأنَّ التنمية الاقتصادية المتواصلة تتطلب استغلالًا متواصلًا للبيئة. بيد أنَّ النزعة الرأسمالية تبقى المشكلة الأساسية للأزمة البيئية، نتيجة سطوتها الهائلة على البيئة وسيطرتها الأيديولوجية الكاملة التي لا ترى سوى الربح والتوسع المادي، وملامح هوس الاستهلاك نمطًا للحياة، بغض النظر عن البيئة وتوازنها وطرق المحافظة عليها.

ويقبع خلف عبارة: (عبئ سيارتك العملاقة بالنفط الرخيص، وانطلق إلى محبوبتك!) خطاب مضمر يسعى إلى شرعنة الاستهلاك الملحوظ لأمة ثرية، ودعاية إعلانية الغرض منها الترويج لمنتوجات الرأسمالية؛ إذ أكد بعض منظري ثقافة الاستهلاك كـ(هنري ليفي بيفر) أنَّ الإعلان قوة فعالة جدًّا، فهو يمارس ضربًا من ضروب القهر على عقول الناس؛ لدفعهم إلى أن يسلكوا سلوكًا معينًا، فالرأسمالية من منظور ثقافة الاستهلاك ليست نظامًا اقتصاديًّا، إنما هي نوع من الثقافة يوظف فيها كل شيء للترويج والاستهلاك[3]، وهذا ما أكده كتّاب ورؤساء بارزون غير معادين للرأسمالية، بل هم رأسماليون على غرار فرانسيس فوكوياما وحتى مرشح الرئاسة الأمريكي السابق آل غور[4]، لذلك يجب إعادة النظر في عمل النظام الرأسمالي المسيطر، كخفض استهلاك واستغلال الموارد الطبيعية للبيئة، ومنح الأولوية للتوازنات البيئية وليس للنفعية المادية.

ومن المشاهد الأخرى التي تؤكد على النتائج السلبية للرأسمالية، قلة المياه وشحتها، وانظر قول الراوي: "لا تملك إلا أن تقوم فتبول في المرحاض، وتضغط ماء الشفاطة الذي ينزل على شكل بخار حليبي مضغوط، ثم تفتح صنبور البخار المضغوط لتغسل يديك. كلها أدوات تستخدم تقنين المياه. قضية بيئية تعودنا عليها في الإمارات، ولكن أن تكون في اسكندرية البحيرة، وترى بأم عينيك ربوعها التي كانت خضراء، وقد جفت أغصانها، وتصحرت مراعيها، وترملت حقولها، فلم يعد ينكحها ويخصبها غمر مياه النيل المتقوقع على نفسه!"[5].

يستمر الراوي في رسم المشاهد المظلمة؛ ليُنذر البشر من حجم الكارثة البيئية التي سيشهدها العالم لو استمر في الاعتداء على البيئة؛ إذ أشار في المقتطع أعلاه إلى بعض أدوات التقنين المستخدمة في الحفاظ على الماء التي أصبحت تُستخدم في مدينة الإسكندرية، وفي ذلك إشارة إلى بلوغ المشكلة حدًّا شديد الخطورة، لأن من المعتاد والمتعارف عليه أنَّ مدينة (الإسكندرية) مدينة ساحلية تُحيط بها المياه من كل جانب، وإنَّ قله المياه فيها معناه أزمة بيئية عالمية، وهذا ما سبب في جفاف المراعي وتصحر الأراضي الزراعية.

وفي هذا السياق، بدأت تظهر المعالم التي أنذرت بقرب وقوع الكارثة البيئية، حيث فصل المدينة عن الريف بعد ما كان الريف يلتصق بالمدينة كالتصاق (قشر الجوز بلبه)، والتلوث الصناعي، وفقر الريف وانعزاله، وإزالة الأشجار والتصحر وشحّ المياه والفيضانات المدمرة التي بدأت تظهر على الناس الذين يعيشون على أطراف حضارة الرأسمالية.

قدَّم الكاتب أهم التحديات والمخاطر البيئية التي واجهت العالم نتيجة استغلال الإنسان للبيئة في عملية مدمرة لعلاقة البشرية مع الطبيعة.

وللدلالة على أنَّ النزعة الرأسمالية لا يهما سوى الربح المادي، ما تؤكده الرواية من قول (برهان) وهو يطمئن والده: "اطمئن يا والدي، فإنَّ كنعان سيكون غدًا في أيدٍ أمينة، وليس من مصلحة (مستشفى شنغهاي) أن يسيء إلى سمعته العلمية والطبية، فهم علماء وشركاء معنا في تحمل المسؤولية، وأي فشل علمي أو جراحي –لا سامح الله- سيجعل أسهم شركتهم العالمية تهبط إلى الحضيض، وتخسر خسارات

1() مارلاند وآخرون، 2021: 81.
2() فحماوي, 2009: 56.
3() خليل, 2016: 83.
4() يرى أنَّ العلماء باتوا يصرخون عمليًّا من فوق السطوح محذرين من الكارثة البيئية, وإنَّ الجدل حول هذا الموضوع انتهى. ولا يحق لأحد من العلماء النقاش ما إذا كان ثمة احترار في الكوكب أم لا. المشكلة الوحيدة الآن هي الأنظمة السياسية والشركات الكبرى التي ترفض الاعتراف بهذه الحقيقة لأسباب مصلحية, محيو, 2020: 83.
5() فحماوي, 2009: 54.

مالية مدمرة!..."[1]. عندما لا يُنظر إلى الحياة إلا من الزاوية التي تُحقق المصلحة المادية فقط، فأنَّ هذا يعني عدم مراعاة أي قيمة سوى القيمة النفعية، فلا تُراعى الصحة ولا أخلاقياتها، وهذا ما آلت إليه الرأسمالية، التي جردت الإنسان من المشاعر والقيم الأخلاقية والإنسانية.

إنَّ الهدف من الاهتمام بـ (كنعان) هو غاية مادية (براغماتية) بحتة؛ ذلك لأن الأفكار المتمركزة حول "تبعية الطبيعة للتقدم الإنساني توضح الأنماط المستبدة لاستغلال الموارد التي يعتمد عليها رأس المال كونها طبيعية، لكن الحقيقة أنَّ هذه الأنماط لا تستبد بالطبيعة فحسب، بل بأغلب الناس أيضًا"[2]، وهذا ما حدث مع الحفيد (كنعان) الذي أصبح حقلًا لتجاربهم العلمية والطبية، حيث تكمن خطورة التطورات العلمية والطبية المفرطة في أمرين، الأول هو أنَّ الفكر الرأسمالي قد "استخدم التكنولوجيا ومعطيات التقدم العلمي من أجل تحقيق أعلى معدلات الانتاج المادي، ومن أجل إحداث التكديس والتراكم الرأسمالي... وضحى في سبيل ذلك بالكثير من المقومات الإنسانية الأساسية، ولم يتردد في التضحية بالكثير من الأخلاقيات والمُثل المتعلقة بكرامة الآدميّ وحريته"[3]، وأما الآخر فيتجلى في أنَّ الهوية الإنسانية - بحسب (هابرماس) – تتغير كلما أتسعت السيطرة التقنية والعلمية[4]، وتجسدت هذه الفكرة من خلال (الكائن الأخضر)، الذي ذوب الحدود بين الكائنات الحية وتسبب في تغيير الهوية الإنسانية: "لا أفهم ما يدور داخل هذا المستشفى، فهذه الخرائط الوراثية المتشابكة للكائنات الحية، معقد وتحتاج إلى ملايين من الباحثين العاملين كفريق متكامل، ليغيروا سُنة الحياة على الأرض، ومن ثم يؤثرون في الكون الذي انتظم خلال مليارات السنوات..."[5].

يبدو أنَّ الغاية من فكرة إنتاج الإنسان الأخضر، هي رد فعل لما آل إليه العالم نتيجة الإنسان المتحضر، الذي أضرت حضارته العالم الطبيعي والبشري على حدة؛ فتوحش ودمر الأرض، وما عليها من أجل الانتفاع منها والاستحواذ على مواردها.

إذن أصبحت الرأسمالية عقبة يجب التغلب عليها، فظهرت هذه الفكرة من أجل ترويض الإنسان؛ ليتناغم ويتفاعل مع محيطه البيئي، فضلًا عن إنَّ (كنعان الأخضر) يرمز إلى إعادة الاعتبار إلى الطبيعة التي تم تدميرها واستهلاكها من أصحاب رأس المال، وتعويضها بـ(الجيل الأخضر) الذي يخدم بشكل إيجابي البيئة بكل مكوناتها، وهنا تكمن الأهمية البالغة للنقد البيئي في محاولة عقد تصالح بين الإنسان والطبيعة بكل عناصرها.

يوصف الكاتب (صبحي فحماوي) الدمار المتسارع الذي أحدثته الرأسمالية على أنه (تغيرًا بيئيًا)، وبالطريقة نفسها يقدِّم النقد البيئي تحليلًا دقيقًا للتوظيف الرأسمالي، حول كمية المصنّعات والفضلات، فإنَّ الاعتبارات الأخلاقية سوف تبقى ثانوية بالنسبة للربح المادي، فالقوانين الاقتصادية الرأسمالية تنتج بالتأكيد سلوكًا ينتهك الغاية في الاعتدال والعناية بالأنظمة البيئية والطبيعية[6]، وهذا ما أكدته الرواية بقول (برهان): "لقد أنشأت مزرعة الأعضاء البشرية مدينة طبية إكثارية قريبة من مدينة (فيسبادن)، وقد بدأ نشاطها بمختبرات ومعامل للإكثار بالاستنساخ، فأخذوا خليتين، واحدة من رجل وأخرى من امرأة نموذجين في صحتهما وذكائهما، وقبل أن يكثروهما، تفحصوا خارطيتهما الوراثيتين، فاستبعدوا من كل منهما أي مرض أو نقطة ضعف، وزرعوا فيها جينات مقاومة لكل الأمراض الوبائية والفيروسية المستعصية وبعد أن نجحت التجربة، أنتجوا طفلين ذكرًا وأنثى بنفس المواصفات، ثم أخذوا خلايا من أعضاء الطفلين، وزرعوها، فأنتجوا أعدادًا من القلوب والكلى والشرايين والأعضاء البشرية النموذجية، وزرعوها كتجارب لمرضى منتظرين الفرج، وعندما نجحت تجاربهم، اندفعوا بالإنتاج بهدف البيع"[7].

يوضح هذا النص جشع الرأسمالية وتوحشها؛ إذ أنشأت مزارع خاصة لزراعة الأعضاء البشرية الغرض منها زيادة الربح حتى ولو كان ذلك على معاناة البشر، ضاربًا بعرض الحائط تلك القيم والمفاهيم الأخلاقية المرتبطة بكرامة الإنسان واحترامه، واستبدلت بقيم ومفاهيم تحكمها الرؤى المركبة من المادية والنفعية، التي تنظر إلى الإنسان على أنه سلعة إنتاجية يمكنهم من الاتجار بها، وهذا ما نادى بيه الإيكولوجيون الاجتماعيون على إنَّ المشكلات البيئية تنبثق من أنظمة السيطرة واستغلال البشر للبشر[8].

يذهب (رودلف بارد) وهو اشتراكي إيكولوجي بارز في ألمانيا إلى أنَّ الحيثيات الأساسية للأزمة البيئية هي الرأسمالية؛ ذلك أنَّ البيئة الطبيعية جرى نهبها نتيجة التصنيع المكثف، لذا تتميز الرأسمالية ليس فقط بالصراع الطبقي، ولكن أيضًا بتدمير الطبيعة، وإنَّ كلًا من العالم البشري والعالم الطبيعي يتم استغلالهما لأنهما يعملان ببساطة كموارد اقتصادية، وأي محاولة لإصلاح البيئة يجب أن ترتبط بعملية راديكالية للتغير الاجتماعي وقد يطلق عليها البعض الثورة الاجتماعية[9].

1() فحماوي, 2009: 83.
2() مارلاند وآخرون، 2021: 81.
3() هابرماس, , 2003: 44-45.
4() هابرماس, 2001: 46.
5() فحماوي, 2009: 83.
6() مارلاند وآخرون، 2021: 88.
7() فحماوي, 2009: 88.
8() جيرارد, 2009: 41.
9() هيود, 2012: 333.

تجليات الرأسمالية في رواية الحب في زمن العولمة

كما في رواية (الإسكندرية 2050) تظهر الهيمنة الرأسمالية في رواية (الحب في زمن العولمة)؛ إذ تدور أحداث هذه الرواية حول حياة الملياردير (سائد الشواوي) الذي يمثل رأس المال المتوحش الذي يصاب بالإيدز، ويدخل على أثر ذلك في غيبوبة تجعله يهذي على سرير الموت، فيقص للمتلقي قصة حياته، وهو يمارس الأساليب التي تسلكها هذه الرأسمالية المتوحشة القائمة على (حرية) النهب والسلب، واستخدام كل الموبقات الإنسانية، والجنسية، وجرائم القتل بحرية تامة، واللامبالاة في تدمير البيئة التي نعيش فيها على سطح الأرض، ومنها ما جاء على لسانه، وهو يهذي ويكلم نفسه: "سأستورد الإسمنت من الأردن، يقولون إنَّ فيها إسمنت بورتلاندي، وأنا لا أفهم معنى كلمة بورتلاندي، ولكنني أفهم أنه باعوا المصنع للغرب باسم الخصخصة، وأكلوا به حلاوة! فقال لي مهران الكلب في ذلك: شلَّحنا الغرب، حتى تراب بلادنا، فقلت له: لكنه يبقى إسمنت عربي أردني، وإن طال الزمن! فقال: ولكن عن أي زمن تتحدثون؟ تلوث البيئة لنا ولأولادنا، وأما أرباح المصنع فتذهب للغرب، ولا يأتينا من المصنع سوى ضراط الغرب؛ غبار وغازات وتلوث بيئة!"[1].

يرصد الكاتب بأسلوب ساخر الهيمنة الرأسمالية للغرب؛ فأصبح بإمكان القارئ أن يرى كيف تسهم العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أنماط استهلاكنا التي تترك تأثيرات مدمرة على البيئة، وأهم المشاكل البيئية تلك الناتجة عن التلوث الصناعي، وهذا ما أشار إليه (مهران) أنَّ هذه المصانع تطرح الغازات والسموم والأتربة وأرباحها تذهب إلى الرأسماليين في الغرب النقي؛ لأن "أنماط الاستهلاك في الدول الغنية هي السبب الرئيسي وراء التلوث البيئي وتدمير واستنفاذ الموارد وإنتاج المواد السامة"[2]، فضلًا عن التلوث البيئي الذي تخلفه هذه المصانع فهي أيضًا تستنزف المواد الطبيعية للبيئة، ومن ثم تذهب أرباحها إلى جيوب الرأسماليين الأجانب من غير أن يمس التلوث بيئاتهم.

كما يُشيع في هذا النص صورًا نقدية للإيديولوجيا الرأسمالية بوصفها المنظومة الفكرية التي تقف خلف الاستغلال الصارخ للمنظومة البيئية. يعلق الكاتب بوعي بيئي على التدمير المُمنهج للأرض والطبيعة التي تقطنها المجتمعات المحلية، فيتم تدمير مناطقها نتيجة عمليات التعدين وصناعة مادة (الإسمنت).

إنَّ الهيمنة الرأسمالية لا تنظر إلى البيئة إلا من جانب تحقيق الأرباح والمصلحة الذاتية فقط، وهذا ما أكده (مستر رالف وود) مستشار (الشواوي) في محاضرته قائلًا: "التجارة تجارة، (بزنس أز بزنس)، أنا مستعد أن أبيع غيومًا في السماء؛ إذا وجدت من يشتري مني هذه الغيوم بأسعار مربحة! ولا أُمانع في دخان المصانع ومجاريها التي تلوث ال... فها هو تلوث الينابيع والأنهار يخلق تجارة جديدة لبيع زجاجات الماء النظيف، إنَّ دورنا هو التفكير بفرص التجارة الجديدة، وليس وقف التلوث، فلا تتشاءموا، فإنَّ التلوث قد خلق تجارة رابحة، ونحن لا نستطيع أن نخلق الكون!، ونحن غير مسؤولين عن البيئة، فإذا كانت غرامة دخان المصنع ألف دولار مثلًا، بينما بقاء المصنع في منطقة غير مسموح بها يوفر عليَّ ألفي دولار، فأنا أُقرر إبقاء المصنع في مكانه، وأدفع الغرامة وأنا مرتاح، ولا تستغربوا إذا ما أدى تلوث الهواء، إلى درجة خلق لنا نحن التجار فرصة بيع الهواء المعلّب، مثل زجاجات الماء النقي، وإذا كانت غرامة النفايات النووية المرسلة إلى الصحاري العربية تكلف مليون دولار مثلًا، بينما توريدها إلى تلك الصحاري يربح شركتنا الناقلة للنفايات النووية عشرة ملايين دولار؛ إذن ندفع الغرامة ونشحن البضاعة، إنها بضاعة مثل سائر البضائع"[3].

نلاحظ من النص أعلاه أنَّ العلاقة بين البيئة والرأسمالية علاقة متوترة مبنية على المصلحة المادية؛ إذ يفصح الكاتب عن منظور الرأسمالية الذي يضع قيمة المال فوق قيمة الحياة البشرية، وفوق قيمة البيئة الطبيعية، كما تظهر النزعة الموجودة لدى ثقافة الرأسمالية باعتبار كل شيء في الوجود (سلعة)، بما في ذلك حياة الإنسان وصحة البيئة، وهذه الرؤية في نظر (مستر رالف وود) ليس خللًا أو انحدارًا، فهذه الشخصية بحكم مهنتها كمستشار اقتصادي لشركات (الشواوي) تعمل على إيجاد الظروف الملائمة التي تسمح بتراكم المال وتضمن النمو الاقتصادي، لذلك فهو لن يسمح لقضايا مثل منفعة البشر أو نقاء البيئة وصحتها أن تقف عثرة في طريق هدفه.

إنَّ مظاهر الحياة في (مدينة العولمة) ملوثة بشوائب مادية وانتهازية؛ فقدَ فيها الإنسان قيمه وأخلاقه، وتمسك بحب المال والسلطة والجاه الذي يبقيه في القمة للهيمنة على البشر وغير البشر، فإنَّ الوصول إلى منتجات الصناعة الحديثة، وإلى التجارة بأشياء ضرورية، مثل الهواء والماء النقي، كل هذا من إفرازات النظام الرأسمالي والتوسع العمراني والصناعي، وبالنتيجة سيوافر لهم ذلك فرص للمتاجرة وزيادة الأرباح، وهذا ما تجلى في النص أعلاه.

يُشير النص كذلك إلى ظاهرة (تصدير التلوث) إلى (الصحاري العربية) حسب تعبير الرواية؛ إذ أكد (لورنس سمرز) وكيل وزير الخزانة الأمريكية في مذكرته أنَّ الولايات المتحدة وجدت من المعقول اقتصاديًّا تصدير تلوثها ونفاياتها السامة إلى الدول الفقيرة وبنى

1() فحماوي, 2008: 37.
2() روبنز, 2008: 387.
3() فحماوي, 2008: 127-128.

حجته على ثلاثة أشياء: أولًا، من الناحية الاقتصادية، فإنَّ تكلفة الأمراض المرافقة للتلوث إذا قِيست بمقياس الوقت الضائع للعمل، تظهر نتيجتها أقل في الدول ذات الرواتب المتدنية، وثانيًا: الدول النامية تعد أقل تلوثًا، وبالنتيجة فإنَّ زيادة في التلوث تُعد أقل تكلفة منها في الدول المتقدمة، وأخيرًا، أنَّ توقعات الأعمار لدى سكان الدول الأقل تطورًا هي أقل من الدول الغنية، باختصار، لقد وضح (سمرز) أن البيئة النظيفة تليق بسكان الدول الغنية أكثر من سكان الدول الفقيرة، ولذلك فإنَّ كلفة التلوث البيئي في الدول الفقيرة هي أقل من كلفته في الدول الغنية، ومن ثمة فإنَّ المنطق الاقتصادي يوجب علينا تصدير النفايات الملوثة إلى الدول الأقل تطورًا[1].

لقد شكّلت مذكرة (سمرز) تعبيرًا تامًّا عن النظرة الفوقية التي تنبثق منها ثقافة الرأسمالية بالنسبة للإنسان والبيئة، لذلك يسعى النقد البيئي إلى نقد الإيديولوجيات المهيمنة والأنظمة المسيطرة للقوة الحضارية، والنظام المالي للرأسمالية، وثقافة الاستهلاك المستمر للبيئة الطبيعية، وهذا ما يريد الكاتب إيصاله إلى ذهن المتلقي ليحفز وعيه بالمحيط البيئي.

إنَّ أهم ما في الخطاب لغته ومجازاته؛ لذا حرص كثير من المفكرين المعاصرين على التأكيد أنَّ خلف كل خطاب ظاهر آخر مضمرًا، وهذا الخطاب المضمر هو الذي يجب أن يعنى به الباحثون والدارسون لمعرفة دلالاته والغرض من وضعه، فمصطلح (الصحراء العربية) الذي وظفه الروائي على لسان الشخصية الانتهازية الغربية(مستر رالف وود) ينقل إلى ذهننا صورة أرض ممتدة بلا تراث أو تاريخ، فلو قال (العالم العربي أو الوطن العربي) المصطلح الذي يستدعي التاريخ والتراث والهوية، لكانت أكثر مقبولية لدى المتلقي من المصطلح السابق، وهكذا هناك مصطلحات عدة تُوظف في الكتابات السردية العربية- سواء بوعي أو من دون وعي- تنقل دلالات خاطئة للمتلقين، وبالنتيجة يتم تشويهها، وتحقيق المقصد الغربي، وهذا كله يجعلنا نؤكد أنَّ لغة الخطاب وصوره المجازية تساعد على تمرير تحيزات محددة وفرضها بشكل خفي لصالح إيديولوجيات معينة.

(مدينة العولمة) – كما تصورها الرواية - مكان غير محدد بدولة معينة، يصف بها الروائي التحولات التي عرفها العالم العربي جراء ظاهرة العولمة التي باتت تفرض هيمنتها على الإنسان، وتشكل مصدر قلق واضطراب لدى الكثيرين، بعد أن غيَّرت من القيم والطباع والأخلاق، وهذا ما تجلى في قول (رالف): "إنَّ الدول الغربية تنتج مزروعات ومبيدات لا تسمح بدخولها إلى نفس بلادها، تنتجها في مزارع ومصانع قائمة على أراض إفريقية أو آسيوية أو أمريكية لاتينية، وهي مخصصة للبيع في تلك الدول؛ ذلك لأن المواد الكيماوية المستخدمة فيها لا تجعلها صالحة للاستهلاك الغربي، ولكنها صالحة تمامًا لاستهلاك الدول الفقيرة، وحتى تلك المنتهية صلاحيتها في دول الغرب، هي صالحة للاستهلاك في الدول النائمة! فضحك سائد قائلًا: (يا رالف! اسمها الدول النامية، وليست النائمة!) فأجابه رالف وهو ينفض سيجاره الكوبي:(هي لو كانت نائمة لكانت أحسن، ولكان هناك مبرر لتأخيرها!"[2].

في النص أعلاه نقدٌ واضحٌ وصريح لهيمنة المركزية الغربية، التي لا تراعي إلا مصالحها، ولا تلتفت إلا إلى ما يضاعف أرباحها، من خلال تصدير التلوث والمنتجات غير الصحية إلى الدول المهمشة والمبعدة اقتصاديًّا وسياسيًّا وثقافيًّا. الكاتب (صبحي فحماوي) يوظف هذه النصوص من أجل فضح زيف الرأسمالية المهيمنة على البشر وغير البشر، وبما أنَّ الأدب قوة إيكولوجية ضمن الثقافة؛ فهو تفكيكي وبنائي بالوقت ذاته، فيعيد النظر ولو بصورة رمزية إلى المهمش، ويعيد ربط ما هو منفصل ثقافيًّا[3].

وفي هذا النص أنساق مضمرة في طرائق المعاملات، وأسس الاحترام البشري للآخر؛ فالكاتب يُعلق على هذا الفعل بوعي بيئي، يرفض فيه التراتبية بين البشر.

يحاول النقد البيئي تفكيك الإيديولوجيات المهيمنة وعرض البنى الاستغلالية للأنظمة الرأسمالية المسيطرة للقوة الحضارية التي باتت تفرض نفوذها على مستوى العالم، كالنظام المالي لرأسمالية (مدينة العولمة)، وهذا ما يُفهم من كلام (رالف): "تصور يا سائد لو تركنا هذه الشعوب دون القمح الأمريكي، حتى لو كانت صلاحيته منتهية في أمريكا، ماذا سيحصل؟ سيموت الناس في الدول النائمة، أو النامية كما قلت، فإذا أكلوا هذه الأغذية، وحتى الأغذية المعاملة بالكيمياويات، فإنهم سيعيشون بمعدل خمسين سنة من العمر، ما رأيك، هل تتركهم يموتون من الجوع في معدل أعمار الثلاثين، أم ترفع مستوى أعمارهم إلى سن الخمسين؟ نحن نفيدهم يا سائد"[4].

يرمز (رالف) إلى القوة الرأسمالية التي تنظر إلى الحياة من ناحية تحقق المصلحة النفعية فقط، فلا يترك اعتبارًا للصحة ولا للبيئة وأخلاقياتها؛ إذ إنَّ الرأسمالية مكرسة للإنتاج التوسعي لمصلحتها.

يمكن القول إنَّ (رالف) يتصرف وكأنه أكثر أهمية من الطبيعة والمجتمع الإنساني، ويرى نفسه أنه ذو تمركز بشري أعلى من غيره من البشر والطبيعة؛ فهو يستخدم لون جلده وجنسه (الرجل الأبيض)، وعرقه (الأوربي) كمؤشر على قدرته الفكرية؛ إنَّ هذه الأفكار هي من

1() روبنز, 2008: 387-388.
2() فحماوي, 2008: 131.
3() مارلاند وآخرون: 160.
4() فحماوي, 2008: 131.

مخلفات فكرة التمركز كـ(المركزية الغربية)، و(المركزية الذكورية)، و(المركزية البشرية)، ووظيفة هذه المركزيات هي الهيمنة واستغلال البشر للبشر، والبشر للبيئة، وتوضح الأنماط المستبدة؛ لاستغلال الموارد الي يعتمد عليها رأس المال كونها طبيعية، لكن في الحقيقة أنَّ هذا التمركز والفوقية لا تستبد بالبيئة فحسب، بل بأغلب الطبقات الفقيرة من المجتمع، وعليه فإنَّ قيمة الإنسان في المجتمع الرأسمالي تختلف حسب تراتبيات المركزية البشرية؛ ذلك أنَّ "قيمة المرأة أقل من قيمة الرجل، وحياة الإنسان الأسود أقل قيمة من حياة الإنسان الأبيض"[1].

ويضيف (رالف) قائلًا: "نحن دعاة سلام يا سائد. حاول أن تفهم دورك العولمي وتدافع عنه... نحن نقوم بخدمة الإنسانية. هذه هي فلسفة العولمة، إنها العطاء بلا حدود، إنها رأسمالية بلا حدود، إنها النضح! كل إناء بما فيه ينضح. إننا ننضح مخلفاتنا لدول العالم الثالث، وبالمقابل تزودنا هذه الدول بالمواد الأولية، كالنفط والمعادن والأسمدة، والخشب، نقطع من البرازيل غاباتها، وحتى لو تلوثت البيئة، فإنَّ أشياء أخرى قد تحسنت، جيوبنا انتفخت دولارات، وعمالهم المساكين حصلوا على فرص للعمل! هذه هي حضارة التبادل التجاري الاقتصادية! حتى لو تأثر الاكسجين، وازدادت على حسابه غازات الكربون، فهذا لا يهمني ما دمت (أنا أولًا)، أعيش في بيت نظيف، بعيدًا عن التلوث البيئي"[2].

ينطلق هذا النص من تفكيك التصورات والمفاهيم المادية التي أسهمت في انحراف البشرية في التعامل مع المنظومة البيئية، ويعزو أسباب الدمار البيئي إلى إيديولوجية مرتبطة بالرأسمالية والتي تقول: "بأنَّ على الإنسان أن يهيمن على الطبيعة ويطوّعها... وهذا التفكير ينطلق مباشرة من هيمنة الإنسان على الإنسان"[3]، كما يعتقد الإيكولوجيون الاشتراكيون أنَّ توسع النظام الرأسمالي هو المسؤول عن الإقصاء الاجتماعي، والفقر، والتدهور البيئي، وتعاسة البشر بالعولمة والإمبريالية اللتين تديرهما شركات متعددة الجنسيات، ودول إمبريالية قمعية[4]، وهذا يتوافق تمامًا مع رؤية (رالف) في المقتطع أعلاه، فالتوسع الرأسمالي يسبب كل الأزمات البيئة عن طريق التصنيع الجامح، والانهيار المجتمعي الذي ينبع من فكر استعماري استحواذي يدعى (فلسفة العولمة)، وإلى جانب تدميرها للبيئة، تحوّل الرأسمالية غالبية شعوب العالم إلى مجرد مستودع لقوة العمل، بينما هي تخترق المجتمعات عبر الاستهلاك والتقويض، حتى لو كان ذلك على حساب نقاء البيئة من عدمها.

الخاتمة

اتضح مما سبق أنَّ الرأسمالية، كإطار اقتصادي واجتماعي، تؤدي دورًا بارزًا في تشكيل العلاقة بين الإنسان والبيئية كما تجلى ذلك في روايات (صبحي فحماوي)، فمن تحليل نصوصه الروائية، تمكنت الدراسة من استكشاف التوترات الناتجة عن التفاعل بين الإنسان والبيئة في ظل النظام الرأسمالي؛ إذ كان للنظام الرأسمالي في هذه الروايتين حضور لافت؛ إذ ركزت المقاربة النقدية للنقد البيئي على ما يحصل في المنظومة البيئية من استغلال لمواردها؛ إذ أسهمت الروايتان في التعبير عن وعي الكاتب تجاه البيئة، والانتصار لها، كما أسهمت المقاربة النقدية للخطاب البيئي في نشر الثقافة البيئية ونبذ ثقافة الاستهلاك في المجتمعات غير الصناعية. كما أظهرت الدراسة أنَّ (فحماوي) لا يكتفي بتصوير الواقع البيئي، بل يسعى أيضًا إلى تحفيز الوعي البيئي لدى القارئ؛ مما يعكس التزامه العميق بقضايا البيئة بشخصياته وأحداث رواياته؛ إذ يسلط الضوء على الأزمات البيئية التي تنجم عن الاستغلال المفرط للموارد الطبيعية، ويعبر عن الحاجة الملحة لتبني ممارسات أخلاقية تجاه البيئة.

إذن يمكن القول إنَّ فحماوي بروايته، يسهم في تشكيل وعي بيئي متزايد، ويعكس أهمية الأدب كوسيلة للتغيير البيئي، وإنَّ فهم هذه العلاقة المعقدة بين الرأسمالية والبيئة بالأدب يمكن أن يكون خطوة نحو تحقيق مستقبل أكثر استدامة.

References:

1. Ahmed، E. (2006). The Problem of Existence and Technology in Martin Heidegger. (1st ed.). Beirut: Arab Scientific Publishers.
2. Al-Hussami، A.، (2009)، The fog came.. The fog went away: A reading from an environmental perspective، Alamat Magazine: Jeddah، Vol. (17)، No. (68).
3. Branch، M.، (2007)، Ecological Criticism: Nature in Literary Theory and Practice. Translated by: Mu’in Shafiq، Nawafidh Journal: Jeddah، No. (36).

1(1) روبنز, 2008: 389.
2(2) فحماوي, 2008: 132.
3(3) روبنز, 2008: 587.
4(4) محيو, 2020: 167.

4. Baali، H.، (2007)، An Introduction to Comparative Criticism Theory (Beginnings، References، Methodologies)، (1st ed.)، Beirut، Arab House for Science Publishers.

5. Girard، J. (2009). Environmental Criticism، translated by Aziz Sobhi Jaber، reviewed by Ahmad Khreis. (1st ed.). Abu Dhabi: Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage (Al-Kalima).

6. Khalil، S. (2016). A Guide to Cultural Studies and Cultural Criticism Terminology: A Documentative Illumination of Common Concepts، reviewed by Samir Al-Sheikh. (1st ed.). Beirut: Scientific Books House.

7. Robbins، R. (2008). Global Problems and the Culture of Capitalism، translated by Fouad Sarouji، reviewed by Imad Omar. (1st ed.). Amman، Jordan: Al-Ahlia Publishing and Distribution.

8. Sargent، L. (2016). Utopia: A Very Short Introduction، translated by Diaa Warrad، reviewed by Mustafa Mohamed Fouad. (1st ed.). Cairo: Hindawi Foundation for Education and Culture.

9. Abdul Jabbar، F. (2018). Alienation. (1st ed.). Beirut: Dar Al-Farabi.

10. Fahmawi، S. (2008). Love in the Age of Globalization. (1st ed.). Beirut: Al-Farabi Publishing and Distribution.

11. Fahmawi، S. (2009). Alexandria 2050. (1st ed.). Beirut: Dar Al-Farabi.

12. Marcuse، H. (2011). Philosophies of Negation: Studies in Critical Theory، translated by Mujahid Abdul Moneim Mujahid. (1st ed.). Cairo: Dar Al-Kalima.

13. Muhammad، H.، (2022)، Environmental Literary Criticism; A Reading in the Corpus of Arab Environmental Studies، and an Applied Practice on the Story (I Saw the Palm Trees) by Radwa Ashour، Journal of Human and Literary Studies: Faculty of Arts، Kafr El-Sheikh University، Vol. (26)، No. (2).

14. Marland et al.، B. (2021). Environmental Criticism: Introductions، Approaches، Applications، translated by Najah Jbeili. (1st ed.). Iraq: Dar Shahryar.

15. Mahyou، S. (2020). Out of Hell: A New Global Environmental Consciousness Uprising or Extinction. (2nd ed.). Beirut: Center for Arab Unity Studies.

16. Habermas، J. (2001). Knowledge and Human Interests، translated by Hassan Saqr. (1st ed.). Germany: Al-Jamal Publications.

17. Habermas، J. (2003). Science and Technology as Ideology، translated by Hassan Saqr. (1st ed.). Germany: Al-Jamal Publications.

18. Horkheimer، M.، & Adorno، T. (2006). Dialectic of Enlightenment، translated by George Katoura. (1st ed.). Beirut: Dar Al-Kitab Al-Daudi Al-Muttahid.

19. Heud، A. (2012). Introduction to Political Ideologies، translated by Mohamed Al-Saffar. (1st ed.). Cairo: Egyptian General Book Organization.

20. Yitqah، S. (2009). The Novel of the Countryside Between Reality and Utopia، Al-Mukhbir Journal - Research in Algerian Language and Literature، (5) .